(١٤) الصراع بين العلماء

(الصراع بين العلماء)

د. راغب:

سوف نتحدث عن عنصر آخر من عناصر الأزمة ومشكلة أخرى لعلها أصبحت ظاهرة وليست فقط حالة، وهي مشكلة كبيرة يشاهدها الجميع على الشاشات وصفحات الجرائد والمحافل العلمية وغيرها، وهي قضية تحتاج وقفات كثيرة.

ألا وهي قضية الصراع بين العلماء

العلماء الذين يفترض أن يقودوا العالَم إلى التوحد والاعتصام بكتاب الله عزَّوجلَّ، إلى نبذ الخلافات والفرقة وتوجيه الهدف باتجاه واحد،

لكن ما يحدث هو الصراع بين عالِم وعالِم آخر وبين علماء دولة وعلماء دولة أخرى، ما الذي نحن إليه سائرون وإلى أي شيء نهدف بهذا الصراع بين العلماء؟

د. صلاح:

العلماء الذين يريدهم الله يُجَمِّعُون ولا يُفَرِّقُون، ويَقُودُون نقلة نوعية في الانتقال من العصبية الذميمة إلى الأخوة الحميمة، ومن الفرقة والاختلاف إلى الوحدة والائتلاف، وإلا فهم في صف آخر ليسوا من العلماء الربانيين: {وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلا الذين أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} [البقرة: ٢١٣]

كنت أظنها ظاهرة مرضية في واقعنا المعاصر، إلى أن قرأت كتابًا في جامعة أوهايو في أمريكا، بعنوان (تحاسد العلماء) والوقائع التي قرأتها في هذا الكتاب مُرة، وهو لأحد العلماء القدامى.

فكان يظهر فيه أنه كان هناك بعض العلماء يوشون لدى الحكام لحرق كتب أقرانهم، فإن كان هناك عالِم ممن هم أبلغ منهم والناس تلتف حوله وتنزل على فتواه أكثر منهم، فيدسون له الشائعات ويحركون ضده المؤامرات.

كما حديث مع الذين ذهبوا إلى الخليفة العباسي ودقَّوا إسْفينًا بينه وبين الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة الذي يُقال فيه (لا يُفتى أحد ومالك في المدينة) في قضية الطلاق بالإكراه والبيعة بالإكراه، وتحولت من قضية اجتماعية إلى قضية سياسية، حتى وصل الأمر إلى أذية الإمام مالك ويُضرَبَ حتى أن ذراعه لم يستطع أن يرفعها في الصلاة.

وفي الصورة الأخرى من العلماء نجد قول الإمام الشافعي رحمه الله: (والله ما جادلت إلا دعوت الله أن يجري الحكمة على قلبه ولسانه) وهذا لأنه يمكن أن يعود إلى الحق أن بدا لدى الآخر.

د. راغب:

وكذلك هو يريد ألا يُفتن، فلو أحدًا ناظرَ أحدًا آخر وظهر الحق على لسانه هو قد يظن في نفسه القدرة وأن ما أوتى من علم عنده فهو بحجته وعقله وبيانه وحسن دليله وينسى أن الله هو الذي وهبنه الحكمة وأعطانه هذا البيان والكلام وهو الذي علمه هذا العلم.

فالإمام الشافعي من شدة ورعه وتقواه وحسن اتصاله بالله عزَّ وجلَّ، يريد أن يظهر الحق على لسان الآخرين حتى لا يُنَظَرَ إليه على أنه ينتصر دائما في كل معاركه النقاشية مع بقية العلماء.

هذا المثال في الشافعي رحمه الله ومقارنة بأمثلة العلماء الآخرين يجعلنا نحمد لله أن هذا النموذج لدينا، وهناك أمثلة كثيرة في حياة العلماء من السلف الصالح وفي حياة العلماء من زماننا الآن.

لكن أذكر في قضية الصراع بين العلماء، في أحد الكتب التي كتبتها حديثًا اسمه (فلسطين واجبات الأمة) والذي كتبته بسبب مشكلة الصراع بين العلماء وكانت فكرة الكتاب الصراع بين العلماء.

ما حدث أنني كنت ذات مرة في أمريكا، وكان قد حدث الضرب على غزة قبلها بعام، واتصل بي أحد العلماء يشكو لي من عالِمًا آخر لأنه هذا ظهر على الفضائيات وأخذ يتكلم عنه كلامًا شديدًا وظهر هو في برنامج آخر وتكلم عن العالِم الثاني وأخذوا يتراشقون بالألفاظ على شاشات الفضائيات، واتصلا الاثنين بي مكتئبين بسبب الشقاق الكبير بينهم ورأي كل منهم حول قضية فلسطين وغيرها ودور الأمة فيها.

فكرت فيما حدث وما سبب هذا الصراع، وجدت أن من أهم أسباب هذا الصراع أن هذا العالِم الأول يخاطب شريحة معينة فينظر إلى القضية من وجهة نظر معينة، والآخر يُخاطب شريحة أخرى، وكان كلام الأثنين صحيح، فاكتشفت أن الخطاب في قضية فلسطين والعراق في أي قضية أخرى يختلف من شريحة إلى شريحة أخرى.

الأمة فيها شرائح مختلفة، فعندما أتكلم عن قضية فلسطين مع أهل فلسطين لا شك أن الحوار يكون مختلفًا عنه مع غير أهل فلسطين، وعندما أتكلم في هذه القضية مع شخص غني فإن الكلام سيختلف عندما أتكلم عنها مع فقير، وعندما أتكلم مع من يعيش في بلاد المسلمين عن قضية فلسطين فإنه سيختلف عما أتكلم بها مع من يعيش في جالية مسلمة في الخارج، وما أتكلم به مع رجل يختلف عن ما أتكلم مع امرأة، وهكذا.

وهذا كان السبب الذي ألفت من أجله كتاب (فلسطين واجبات الأمة)، وفيه قَسَّمتُ الأمة الإسلامية إلى ١٨ شريحة لكل شريحة لها أدوار معينة، فظهر هناك أكثر من ١١٣٠ دور لن يقوم بهم شخص واحد بل كل شريحة لها دورها.

فمن ينظر إلى هذه القضية يجد أن لكل عالِم دور فيها ويسد ثغرة من ثغراتها، فلا يشترط أن يكون الجميع على كلام واحد أو مذهب واحد، لا مانع ولا ضير في التعارض بين كلام العلماء واختلافهم طالما أن الهدف في النهاية واحد.

هذه الرؤية تعطي حماية من الصراع وتعطي ثراء في الفقه وثراء في المعلومة، وثراء في الوصول إلى الناس، فكل عالِم لديه القدرة في الوصول إلى شريحة ما، وبهذا فشرائح الأمة كلها سُدَّتْ بهذا التنوع العظيم من العلماء وبهذا ننسى الصراع بين العلماء وننتقل إلى ما بعدها من خطوات إيجابية.

د. صلاح:

تاريخنا به الكثير من المآسي في هذا الأمر وإن كان الأمل إن شاء الله كبير.

كنت قد قمت بكثير من البحوث عن ابن حزم الأندلسي، وانا معجب بعقليته فهو عالِم وفقيه ومحدث ومحقق ذكي جدًا، لكن أوذيت منه أذى لا حد له لأني وجدت منه تقريعًا لكل إمام من الأئمة الأربعة أو غيرهم من المخالفين له في الرأي.

وقلت في أبحاثي انه لا يجوز الاقتداء به في هذا الأمر أبدًا ورغم أن له عذرًا لأنه ممن وشى به العلماء لدى الحكام وأحرقت كتبه وسُجِنَ، إنما هذا لا يعفي أي عالِم من أن يلتزم بضوابط الخلاف.

وانا أُعلِّم طلابي في الدراسات العليا وأقول لهم اختلفوا مع من شئتم لكن بضابطين:

الأول: الأدب

والثاني: السبب

أدب الاختلاف مع الآخر أما السبب فهو أن يكون لديك دليل. فيكون لدينا سبب الاختلاف وأدب في طريقة الاختلاف.

والإمام الغزالي وضَح لنا مآسي في كتابه (حجة الإسلام) يقول: (والخلاف بين العامة لم يقتصر عليهم وإنما نشأ لدى العلماء،

فيقال لأحدهم: هل يجوز أن يتزوج الشافعي حنفية؟

يقول: لا، ثم استدرك فقال: لا، إنما يجوز فقط قياسًا على نكاح الذمية)

والله لو بُعِثَ الشافعي وأبو حنيفة لتبرأ من الاثنين معًا، لأن الأئمة الأربعة كان بينهم احترام كبير جدا

حتى أن أحمد بن حنبل يقول في الشافعي: (الشافعي كان كالشمس للدنيا ،وكالعافية للناس، فهل عنهما من غناء؟!)

و الإمام الشافعي عندما صلى في مساجد الأحناف في العراق ترك الأخذ بمذهبه في صلاة القنوت، احترامًا وإجلالًا لرأي مخالفه، وكان ذلك بعد وفاة الإمام بن حنيفة ومع ذلك كان يحترم البلد الذي يتبع فقهًا معينًا.

كنا في مؤتمر في أمريكا يحضره حوالي ٦٥ عالم من كل المذاهب السنية المعتمدة، وكان يفترض أن الشيخ رئيس المؤتمر سيلقى الكلمة لكنه مَرِضَ ولم يستطع، فتشاورنا وأحضرنا اكبر العلماء سنًا بعد هذا الشيخ ليقول الكلمة مكان الشيخ المريض، وإذ به يتكلم ويصب جام غضبه على الشيخ المريض ويقول فيه إسفاف من أشد أنواع الإسفاف.

وليس فقط سَبَّ الشيخ رئيس المؤتمر المريض وإنما طاح في قطاع عريض من علماء المؤتمر وقال فيهم كلام لا ينبغي أن يُقال.

فأخبرناه أنه لا بد من الاعتذار عن هذه الكلمة وأدرنا المسألة وتكلمنا مع الشيخ المريض لما نزل وقال (أنا أعفو عمن ظلمني وأصل من قطعني وجئنا هنا لحل معضلات فقهية لا لنتنابذ) فكان مثالا للعفو والصفح.

ثم أكملنا المؤتمر وتكلمنا في قضايا كثيرة لكن بدأ الحوار بين العلماء في توتر، وكأننا تحولنا إلى صراع الديكة او صراع الفيلة، وكان الكل متربصون لبعضهم جدا وأخذ الكل يسيء لبعضهم البعض، فتعكر الجو جدًا وبدانا نحاول أن نلطف الأجواء ثانيا، ثم انتهينا في قضية فقهية معينة انقسمت الآراء فيها وكنت مع رأي الأقلية بالمنع في هذه القضية لأن فيها محاذير شرعية من الأخذ بالرخصة فيها.

فجاءني ذلك الشيخ وقال لي (أنت خالفت شيخك ونحن لا نريد أن تمر هذه القضية ولو سالت فيها الدماء ولن تخرج هذه الفتوى على الإطلاق)، فأجبته: أن من يقبل أن يكون في مجمع فقهي لا بد له أن يحترم رأي المخالف له وإلا يعتزل، فالمجمع الفقهي يعني مجموع الآراء، (رأي الجماعة لا تشقى البلاد به ورأي الفرد يشقيها ويطغيها).

و كانت معانة أن ينتهي هذا المؤتمر وبأي شكل.

د. راغب:

لكن حتى لا نُحبَطَ، بالتأكيد هناك مؤتمرات كثيرة كانت ناجحة.

د. صلاح:

نعم، ولدينا مجالس المجمع الأوربي للإفتاء والبحوث، وهو نموذج متميز للرأي والرأي الآخر الذي يختلف فيه كُل مع الآخر بأدب وبسب.

د. راغب :

هذا التطاول الذي يكون بين العلماء، هل تعتقد أن سببه هو الحسد بين العلماء أو ما سببه؟

د. صلاح:

سببه هو الحسد بين العلماء، فالعالِم قد يرى نفسه أنه هو الحارس للحق في قضية من قضايا الفروع التي من أجلها يُضَيِع الأصول ، فيتسبب في شَقَّ الأمة بوهم أنه يدافع عن أصل من الأصول، وهو ليس أصلًا.

عندما يغوص في التحليل بسبب الحسد، فيرى أن الذي أمامه ينصرف الناس إليه والفضائيات وذهب إلى بلاد شتى، إنما هو لا أحد يسأله ولا ينزلون على رأيه.

لكن عليه أن يفكر في أن العالِم هذا قد يكون له قبول عند الله لعله بسبب ركعات في الليل أو صدقة سر أو صلة أرحام.

د. راغب:

على العالِم أن يدعو لأخيه العالِم، فعندما تحضر له في خطبة جمعة أدعو له ربنا أن يثبته وقلوب العالم وينفعه، والله عزَّوجلَّ إذا رآك تدعو لأخيك يجعل لك ملكًا يقول ولك المثل، قال رسول الله صل الله عليه وسلم: «ما من عبدٍ مسلمٍ يدعو لأخيه بظهرِ الغَيبِ، إلا قال المَلَكُ: ولك، بمثلٍ»

الراوي: أبو الدرداء -المحدث: مسلم

المصدر: صحيح مسلم - الصفحة أو الرقم: ٢٧٣٢

خلاصة حكم المحدث: صحيح

فالله يسخّر لك مَلَك من السماء، وكأنه يقول لك اطمئن ما دعوت به لأخيك سَيُعلي من شأنك.

د. صلاح:

كنت عندما أجلس مع أحد الإخوة على طاولة واحدة في مجلس ما، أكون حريص جدًا أن أتعلم من أخي وأن أدعو الله أن يلهمه الحكمة وفصل الخطاب، فأنا أحب الرسالة أكثر من حبي لنفسي، فإذا وصلت الرسالة عن طريق أخي ماذا أريد بعد ذلك؟

أوصي كل إخواني العلماء أن يدعو الله بينه وبين نفسه: (اللهم اجعلني عندك خير الناس، وعند الناس من الناس، وعند نفسي أقل من الناس).

وإذا جلس مع أخيه في مجلس ما، أو قرأ لأخيه كتاب ما، فإنما يقرأ بعقل المتعلم وبالعقل الذي يدعو الله أن يزيده من فضله وأن يلهمه الحكمة وفصل الخطاب، فيَستلَّ السخيمة من نفسه.

فلا نكون شركاء متشاكسين بل نكون شركاء متكاملين، نحتاج أن نصطف جميعًا فنجعل القضية أمامنا فلا يهمنا اليد أو اللسان التي تنصر القضية بل نصرة القضية ذاتها.